

عنوان الدرس: فن التوقيعات في العصر العباسي

تعد التوقيعات من أبلغ الفنون التي ساهمت في إرساء معالم الدولة و توجيهها خلال صدر الإسلام و عصر بني أمية و العصر العباسي و قد تجلت التوقيعات في حلة بلاغية راقية تصل حد الصنعة الكلامية الفاخرة من حيث العبارات و المعاني و لاسيما في رحاب الدولة العباسية أين كانت أقصى درجات التميز: " أن خصصوا لها قلما محددًا في ديوان الانشاء سمي بقلم التوقيعات" ¹ حيث خصصت لهذه الأخيرة فئة من الشعب وهم الحكام و الولاة و الوزراء و السلاطين و يتم تداولها في الأوساط السياسية و تستخدم لحل النزاعات و الشكاوي المقدمة من قبل الرعية للنظر فيها و الحكم عليها.

ماهية التوقيعات:

لغة: " جاءت من الفعل وقع ، وورد ذلك في معجم ابن منظور قائلًا فيه : "سمعت وقع المطر و هو شدة ضربه إذا بيل ويُقال سمعت لحوافر الدواب وقعا ووقوعا"² ومن خلال هذا التعريف يتضح أن التوقيع هو ترك الأثر النفسي في الشيء.

اصطلاحا:

يقول ابن خلدون: " من خطط الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في حكمه وفصله ويوقع على القصاص المرفوعة اليه أحكامها و الفصل فيها متلقات من السلطان بأوجز لفظ و أبلغه ، فأما ان تصدر كذلك، وإما أن يحذو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة ويستقيم بها توقيعه"³.

وعرفه ابن فارس قائلًا: وهو أول من أشار الى المعنى الاصطلاحي للتوقيع قائلًا: "من التوقيع ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه"⁴. هذه العريفات الاصطلاحية وفي مجملها تؤكد على بلاغة فن التوقيعات التي تكون حكرًا على فئة متخصصة دون غيرها.

¹ - القافشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، ج/3، تح يوسف علي الطويل ، دار الفكر ، دمشق، ط1 ، دت ،

² - ابن منظور جمال الدين ابن مكرم : لسان العرب، مادة وقع ، مج /15، دار صادر ، بيروت، ط4، 2005م، ص260.

³ - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة، دار صادر، بيروت، ، ط1، 2000م، ص184.

⁴ - ابن فارس / معجم مقاييس اللغة.

طبيعة التوقيعات:

وجاء في تعريفها أنها "التوقيع فن بليغ من فنون النثر ولون رائع من ألوان الكتابة ، وهو عبارة موجزة بليغة يكتبها الخليفة أو الأمير أو الوزير في أسفل الكتب الواردة اليه، لإبداء الرأي فيما يرفع إليه من شكوى أو يقدم اليه من رجاء، أو يستشار فيه من أمر"⁵ فالتوقيع هو عبارة ملخصة و موجزة الرسم الاملائي تؤدي معنى بليغ ومختصر.

أهمية فن التوقيعات:

-تستخدم في حل المظالم بين المتظلمين وتسيير أحوالهم.

-على أساسها يتم تعيين القضاة يتم التوقيع على القاضي الأجدر بالرياسة ومن له شرعية الحكم وتتوفر فيه الشروط.

-مثلا جعفر بن يحيى البرمكي الذي اشتهر بكثرة توقيعاتهم وكانت محل منافسة بين البلغاء فيمن يكون صاحب حظوة لينال توقيع البرمكي إذ وصل الحد به الى بيع توقيعاته وذلك لأهميتها وشدة بلاغتها وذلك خير دليل ما جاء في القول: "كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها، فكانت توقيعاته يتنافس عليها البلغاء في تحصيلها"⁶ وهي توقيعات سرية حتى لا تتعرض للنزوير

- التوقيعات ساهمت في فض النزاعات الاقتصادية والاجتماعية و السياسية و بالتالي وطدت العلاقة و ربطت أواصر المحبة بين طبقات المجتمع.

-وسيلة تواصل بين الولاة و الحكام مع أقاليم أخرى و بالتالي وسعت المعاملات بين الناس و الغاء الحدود الجغرافية .

عوامل ازدهار التوقيعات في العصر العباسي:

شهدت الساحة العباسية تطورات في مختلف مناحي الحياة ولاسيما الفكرية فقد عرف العصر العباسي فنون نثرية كثيرة نتيجة الانفتاح على حضارات غربية مما خلق تمازج في اللغات و ظهرت التوقيعات أكثر لما تقلد بعض الفرس مناصب داخل الدولة العباسية فتأثر العرب بأنظمتهم ، و عملوا على منوالها وخاصة التوقيعات لكن هذا لا يعني بالعرب قد أخذوا هذا

5 - أبو ليل أمين سعيد، ربيع محمد: العصر العباسي الأول، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، د. ط، 2009م، ص224.

6 - ابن خلدون: المقدمة، ص184.

الفن عن الفرس ولهذا برزت عوامل دفعت بعجلة هذه التوقيعات الى التطور و الانتشار : 1-
كثرة الدواوين ديوان الخراج ، وديوان الرسائل ، و ديوان الشرطة.

2- كثرة الكتاب والبلغاء الذين نبغوا في هذا الفن.

3- وأنشأوا ما يعرف بديوان التوقيع يشرف عليه كتاب مهرة لرد على مختلف القصص و الشكاوي
عملية الحكم فيها، قيل أن يُرفع الى الحكام والخلفاء وهذا ما زاد من رفع شأن الكتاب وذلك لتوليتهم عملية
الرد لانشغال الحكام بشؤون البلاد و الرعية.

-في البداية كان الحكام هم من يوقعون ثم أسندوا الأمر الى الكتاب ثم في الأخير أصبح لكل حاكم خليفة
خاص به على أن يكون الكاتب من المهرة البلغاء في الحكمة و سداد الرأي ومن شروط الموقع التي عددها
لنا علي بن خلف:"لابد أن تتوفر في الموقع شروط ومواصفات يتحلى بها ، كما أنه ذكر تلك الشروط منها:
أن يكون حسن الخط، سريع البديهة و يتصف بالنزاهة و الأمانة متدينا مطيعاً"⁷

موضوعات التوقيعات:

- مواضيعها تعالج مختلف القضايا.

- تدعو الى الأخلاق الحميدة وإرساء دعائم الدولة.

- تطبيق العدل في الحكم.

الرد على الأعداء و الوقوف في وجههم.

-الرد على المتظلمين

- الرد على السجناء أملا في تحريرهم .

-الرد على الشكاوي

- التوجيهات الإدارية و السياسية

- الرد على الولاة و العمال.

- الرد على الوشاة و السعاة

7 - علي بن خلف الكاتب : مواد البيان ، تح حاتم صالح الضامن ، دار البشائر، دمشق ، سوريا ، ط1، 2003م، ص51.

أنواع التوقيعات:

التوقيعات من القرآن الكريم :

يكون التوقيع عبارة عن آية قرآنية مثلا وقع أبو جعفر المنصور " في كتابه الى عبد الله بن علي عمه :
ادفع بالتي هي أحسن - سورة المؤمنون الآية 96 فأبو جعفر يأمر عبد الله بن علي عمه أن يختار الأحسن
في توقيعه بهذه الآية جاءت لما ورد في كتاب عبد الله بن علي.

التوقيعات الشعرية: وقد يكون التوقيع من الشعر لما تتضمنه من الشكاوي أو النزاعات هذا ما وقع
عبد الملك بن مروان في كتاب ابن الأشعث. قائلا

فما بال من أسعى لأجبر عظمه حفاظا وينوي من سفاهته كسري

التوقيعات في الأمثال:

وقع هارون الرشيد الى صاحب السند اذ ظهرت العصبية: "كل من دعا الى جاهلية، تعجل الى البلية" 8
-التوقيعات الحكمية:

وترد بالحكمة هو ما وقع أبو العباس السفاح "في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس ارزاقهم: "من
صبر في الشدة ، شارك في النعمة" 9.

خصائص التوقيعات:

-الايجاز – الصنعة اللفظية البليغة -التصوير – الاقتباس...

8 - ابن عبد ربه: العقد الفريد ج/4، ص200.

9 -علي الشق : مراحل تطور الشعر العربي في نماجه، ص527.

